



قراءة في فكر الملحد

وسبل مواجهته

ورقة عمل مقدمة في ندوة (تهافت الفكر الإلحادي)

إعداد

الدكتورة

نور بنت عبد العزیز عبد اللہ العید

أستاذ السنة وعلومها المشارك بجامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن

١٤٣٤ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

أسئلة مهمة تحتطنا ونحن اليوم نناقش تهافت الفكر الإلحادي

ورقة العمل (قراءة في فكر الملحد وسبل مواجهته)

- هل نحن قرييون من الجيل بما يشجعه على المناقشة والإفشاء بكثير من مشكلاته الفكرية والنفسية والعاطفية ؟
 - لماذا يكتم البعض ما يعنيه من الشك والحيرة ولا يستطيع البوح به؟
 - أليس من الممكن جداً أن أياً من أبنائنا الذكور أو الإناث تعتريه أسئلة وإشكالات متكررة حول الخالق سبحانه وصدق النبوة وسلامة الوحي ولا يجد ملاذاً للتعبير عن حيرته إلا مواقع التواصل الاجتماعي باسم مستعار أو صريح، فتتلفه الشخصيات المجهولة أو المعروفة بانحرافها لتزيد شكه وحيرته، ولا تولد إلا مزيداً من التناقضات والاضطراب...
 - أسئلة كثيرة تحاول هذه الورقة أن تكشف عن قراءة في فكر الملحد وسبل مواجهته..
- سوق الأفكار أخطر أسواق المنتجات وأكثرها تقبلاً للتزييف والإفساد لا سيما مع غياب الوعي ووجود الفاسد.
- لندلج إلى تعريف الإلحاد:-
- الإلحاد : هو مذهب فلسفي يقوم على فكرة العدمية ..
- معناه في اللغة : هو الميل عن القصد ، والملحد هو العادل الجائر عن القصد ومنه قول الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا) فصلت : ٤١
- قال الحسن: يجورون ويعدلون ومنه سمي القبر باللحد لأنه في ناحية.
- وأما في الاصطلاح..

فهو إنكار وجود الخالق سبحانه وتعالى ، وهو كفر بالله وميل عن طريق أهل الإيمان والرشد وظهور التكذيب بالبعث والجنة والنار وتكريس الحياة كلها للدنيا فقط..

لذا هذه الورقة ستخرج أثناء قراءة فكر الملحد

* الذي يترك الواجبات الشرعية والتكاليف الدينية لا إنكاراً للخالق، ولكن هوى وشهوة وعجز وكسل، وهذا الضرب ليس في الإسلام فحسب بل وفي النصرانية، يقول عالم النفس الشهير البروفيسور بول فيتز (Paul C. Vitz): بالرغم من سطحية هذا السبب، إلا أنه لم يستطع أن يقاوم الحياة المادية ومغرياتها، فلو أنه أصبح مؤمناً صادقاً، لفاته الكثير من المتع الجنسية، وكان عليه أن يدفع جزءاً من ماله مساعدة للكنيسة وجماعتها. ثم إنه مشغول جداً، فليس لديه وقت للصلاة وقراءة الكتاب المقدس، وليس لديه وقت لمساعدة الآخرين، فمن غير المريح أن يصبح متديناً!

يقول: قد يظن البعض أن أسباب الإلحاد هذه إنما تجذب فئة الشباب في العشرينيات، والواقع أن ذلك ليس مقصوداً عليهم. ويضرب مثلاً بحالة مورتيمر أدلر، الفيلسوف الأمريكي المعروف، والكاتب، والمثقف. يقول أدلر: إن صيرورته إلى رجل متدين يتطلب تغيير الكثير من طريقة حياته (وهذا أمر متعب وليس بالسهل). من مقال إبراهيم الرماح جولة في ناصية ملحد

والنزوع إلى حياة اللهو والمجون سبب من أسباب الإلحاد قديماً، كما ذكر د. عبد الرحمن بدوي في كتابه: (من تاريخ الإلحاد في الإسلام) عن (عصابة المُجَّان)، ، كما سماهم الشاعر أبو نواس، وكان أشهر ما يوجه إليهم من تهم هو ترك الفرائض كالصوم والصلاة، وهؤلاء تزندقوا فراراً من تكاليف الدين ورغبة في الحياة الماجنة المنفلتة، وهم أقرب إلى السخرية والشك والمجون من الإيمان والجِد، وهؤلاء أولى باسم الشكاك العابثين من الزنادقة الجادين.

* وسنخرج من لديه خواطر غير محمودة تطراً على الذهن ولكنها تزول حيناً ثم تعود، وما يعرف بوسواس الاعتقاد

* وسنخرج من لديه أسئلة إستشكالية، ويقصد بها أن المسلم أثناء اطلاعه على القرآن والسنة والتدبر فيهما تنشأ لديه إشكالات بسبب مخالفة تنهياً له أو تبدو له ويتوقعها بين ذلك النص الشرعي والعلم المادي مثلاً، أو بين نص ونص آخر، ونحو ذلك من المعارضات المتضادة ، فيتطلب لها حلاً إما بالجمع حسب شروطه المعروفة لدى العلماء أو الترجيح وفق ضوابطه المشهورة .

يقول د. خالد الدريس في مقالته (خارطة الحوار مع فتاة الشك): "وأظن أن ابنتي (فتاة الشك) بدأت في أول أمرها بالأسئلة الإستشكالية ، ثم انتقلت لمستوى الوسوسة ، حتى وصلت إلى الشك ، ولكن غالب ظني أن يقينها يزورها أحياناً ويستقر لمدة في ضميرها ، ثم تجهز عليه وحوش الشك ، فيتوارى يقينها هارباً لضعفه وقلة عدته وعتاده ، لكنه لم ينهزم نهائياً حتى الآن ، وشاهدي على هذا الظن أنها لو وصلت لحالة التأقلم مع الشك والتعود عليه ، لم تطلب الحوار ، ولم تبحث وتفتش عن يساعدها على اجتياز حالة الشك التي ضجرت منها ، بل بسببها ضاقت عليها الأرض بما رحبت .

ولو أنها وفقت إلى من يجيب عن أسئلتها الإستشكالية في بداياتها ، أو يبصرها بخطوات البحث العلمي الرصين الساعية لفهم جذور ولادة تلك الأسئلة ومكوناتها ونتائجها ؛ لقطعت الطريق على الإغواء النفسي الذي بلغ بها إلى المرحلة الثانية التي لم تحسن التعامل معها أيضاً ، ثم انتهى بها الأمر إلى مرحلة متقدمة وخطرة "

وسنبقى مع صنفين من الملاحظة:-

١ / من يعتقد بنفي الله تعالى ..

٢ / اللا أدريه (يقولون لا ندري هل يوجد رب خالق أم لا)

ويجمع كلا الصنفين إنكار وجود الله لكن الصنف الأول مع جزم والصنف الثاني مع شك.. ويقول د. خالد الدريس في مقاله (اللا أدريه إلحاد منافق) : " وفي مكاشفاتي مع بعض أولئك الشباب والشابات، وجدتهم يرددون فكرة يتفقون عليها، هي أنهم (لا يدرون) هل الإسلام حقّ أو غير ذلك ، ويصفون أنفسهم بأنهم مترددون محتارون، أو كما يحلو لبعضهم أن يطلق على نفسه لقب (اللا أدري) ، ويزعمون أن هناك اختلافاً بين (الملحد) المنكر لوجود الله ، وبين (اللا أدري) ، لكنني بعد أن تمعنت في الموقفين جيداً ، تبين لي أن الملحد هو مؤمن بإنكاره ، أما (اللا أدري) فهو منافق في إلحاده ، وأعلم يقيناً أن هذه الجملة ستغضبهم وسيقولون : هل أطلعت على أفئدتنا ؟ هل تعلم بنوايانا ؟ نقول : لا ندري ونحن أعلم بأنفسنا ، وأنت تقول بما لم نقله أو نصرح به ؟..... (اللا أدري) هو ملحد، ولكن برتوش مشوهة لتخفف من القبح الإلحادي" فالإيمان لا يقبل هذه المرواغة الجدلية ، ليس هناك إلا إيمان أو كفر بلا إيمان ،

وساق د. خالد الدريس ثلاثة أسباب لذلك:.

١/ تطابق الحجج: ولك أن تسأل أحدهم: ميز لي بين أدلة الملاحدة المنكرين وأدلة اللا أدريين المتحيرين تجاه الإسلام ؟ فإن جاء لك بأدلة مختلفة في مضمونها ونوعيتها؛ فصدقه ، أما إن أعاد عليك أدلة الملاحدة النفاة بقوالب وعبارات أخرى ، فهو مراوغ لا أكثر .

٢ / .. ثانياً : الإنبهار بالطرح الإلحادي

وعند المناقشة مهما جاءت الأدلة الإيمانية المضادة ، لا يجد لها أي قبول في نفسه ، بل لا يمنح فكره الوقت لتدبرها والانفتاح عليها، يُسارع بنفيها ونقدها، ففكره قد مال وقلبه تعاطف بقوة مع تلك الأغاليط الإلحادية وترسخت فيه وتمكنت تمكناً قوياً وأصبحت هي

الأصل والقاعدة، ومن صفات الباحث عن الحق أن يكون ميزانه صحيحاً مستقيماً عادلاً لا يجور أو يخور، فلا يستقيم في منطق البحث العلمي المنصف أن تُعطى الساعات الطوال لقراءة وتفهم حجج طرف على حساب طرف آخر لا يحظى إلا بالضيق والتبرم.

٣/ ثالثاً : الهجوم على الدين والمتدينين : كيف تهاجم مالم تثبت بطلانه يا لا أدري.

تفسير اللا أدرية: اللا أدرية (في حقيقتها القاسية بلا أي زخرفة حيلة حجاجية لتخفيف الضغط النقاشي الجدلي أمام سيل الحجج الإيمانية ، هي حيلة للهروب من بعض المواقف المخرجة عند النقاش والمحااجة ، بل كثيراً ما تكون حيلة نفسية يُخادع بها الملحد نفسه ؛ ليخفف حدة الخواء الروحي الذي يسحق روحه سحقاً بلا هوادة أو رحمة

(مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) النساء : ١٤٣
فالمناقفون في الحقيقة يُشابهون " النسبيين " و اللا أدريين . ولهذا إذا سئل المنافق في القبر كما ورد في الحديث الصحيح عن خالقه ودينه ورسوله يقول : (هاه هاه ، لا أدري) فقاتل الله هذه المبادئ المنافقة ما أبشعها وأضرها وأشقاها.

قراءة في فكر الملحد :-

لم أجد شخصاً شخص ثالثاً التمرد الفكري كالدكتور خالد الدريس في مقالاته (٣): " كيف تصبح مفكراً متمرداً في تسع ساعات؟

مثلث التمرد الفكري ، فأحببت أن أشارككم في كشف زيف المتعالمين الذين ارتفع صخبهم في وسائل التواصل الاجتماعي والمقاهي الفكرية وغيرها ، فما هي أضلاع المثلث ؟

الضلع الأول : (كن معارضاً)

الضلع الثاني : (كن غامضاً)

الضلع الثالث : (كن نسبياً)

١/ كن معارضا:- المسألة يسيرة جداً بل وقديمة، لكي تنجح في جذب الأنظار عليك أن تخالف السائد والمعروف، خالف كل الأشياء المألوفة، عليك بنقد المقدسات والتشكيك في صحتها، تهكم على المسلمات الاجتماعية، حطم كل شيء يستحسنه عموم الناس وارفضه بقوة وعارضه بشدة، فإذا عظم الناس مثلاً التفاؤل والنظرة الإيجابية ومدحوهما؛ فعليك أن تهاجمهما بضراوة ، تحدث بامتعاض عن المتفائلين وتفاهاتهم، وصفهم ببلاهة الفهم إزاء الإحساس بآلام العالم، وتعجب من موت ضمايرهم التي تشاهد كل هذه المآسي في العالم من فقر ومرض وموت ونهب وظلم ومع ذلك يتحدثون ببلاهة عن التفاؤل، ثم اسخر من فكرة الإيجابية كما تشاء، فالمجد للساخرين والمستهزئين بكل من لا يشبه فرادتهم وإبداعهم !

كن نيتشويًا ومزق القيم تمزيقاً !

.. ومن هنا وجدنا بعضهم يُوصي غيره ممن يستنصحه: لن تكون مفكراً لامعاً إلا إذا تأثرت بشخصية نيتشه الذي كان يتفلسف ويفكر بمطرقة حطم بها كل شيء رآه الناس جميلاً ومهماً ، كما قال في كتابه " هذا الإنسان " ترجمة مجاهد عبدالمنعم مجاهد (ص ١٧٤): (إن من يكون مبدعاً في الخير والشر، يجب أن يكون في البدء مدمراً، ويمزق القيم تمزيقاً) .

هل عبقريتك في أنفك كـ "نيتشه" !؟

.. وفي (ص ١٧٣-١٧٤) يقول : (إن عبقريتي تكمن في أنفي !!) وهذا إمعاناً منه في الطرح الغرائبي المعاكس للمألوف ، وماذا سيجد العالم في أنف نيتشه من عبقرية يا ترى ؟

.. ثم يمدح التناقض فيقول : (إنني أتناقض بمثل ما لم يتناقض أحد من قبلي)
 .. ولعل هذه المخالفة لكل شيء سائد أو المعاكسة دائماً من أجل المعارضة ، هي أحد أسرار الإعجاب الشديد بنيتشه الذي نجده متفشياً في أوساط بعض الشباب لكونه ملهماً لهم في تعبيد هذا الطريق القصير نحو الشهرة السريعة بأدنى جهد وأيسر مجهود ، وهو إعجاب غير مبرر علمياً وعقلياً لعدة اعتبارات مهمة ربما أعود لها لاحقاً .

يقول عالم النفس بول فيتز: إنه نشأ في أسرة من طبقة متوسطة عادية، ولم يكن هذا شيئاً ذا بريق أو يستدعي الاهتمام، ثم إنه تطلع لأن يكون له مكان براق في سماء الفكر العلماني الجديد. ويذكر أنه متأكد أن كثيراً من الشباب المهمشين الذين ألدوا في القرنين الماضيين كانت هذه دوافعهم، طلب التغيير أو الشهرة والمجد. يريدون أن يصبحوا مثل فولتير الذي عاش حياة ارسقراطية في باريس. وبعض الشباب ألدوا بسبب إصابتهم بعقدة نفسية لأنهم من أسر أصولية: كالمورمان، والمعدانية الجنوبية، وكاليهود الذي كانوا يعيشون في مقاطعات منبوذة خاصة بهم (جيتوهات). كان هؤلاء يواجهون بعض السخرية من (العصريين)، فأصبحوا يفرون من الإيمان وكل ما يتعلق به. المرجع جولة في ناصية ملحد لإبراهيم الرماح.

ومن مظاهر التطبيق لقاعدة : (كن معارضاً) أي كن غريباً مختلفاً عن السائد ؛ الولوج بطرح الأسئلة التي تثير الدهشة لأول وهلة، مع أنها لا تليق بطرحها لبعدها عن تخصصاتهم ، وما ذلك إلا محاولة من بعضهم للظهور بالعمق الفكري والعبقرية الفريدة، ولكي يقال عنه : إنه واسع التفكير في الأشياء والوجود ، ومما يؤكد أنها أسئلة لا تليق بهم ؛ أنهم لا يبذلون أي جهد علمي حقيقي أو بحثي للعثور على الإجابات، وذلك من قبيل :

- لماذا الشمس دائرية وليست مثلثة أو حلزونية ؟
- لماذا القمر ليس له أسنان ؟
- هل الهواء له ذاكرة ؟
- هل ترانا القطة كما نرى أنفسنا، أو ربما كانت تشاهد الإنسان في صورة دجاجة ؟
- هل تشعر الألوان بوجودها أو ربما ظن اللون الأحمر أنه كالماء بلا لون ؟

.. وهذه أسئلة سهلة جداً لحد التفاهة ، تعتمد على الصور المجازية والتلاعب بالكلمات، ويستطيع أي محترف لغوي أن يطلق العشرات على شاكلتها من مدفع أسئلته وبسرعة فائقة .

٢/ كن غامضاً:- يُروى أن لغويّاً متنطعاً سأل خادمه سؤالاً غامضاً ، فقال : يا فلان " أصقعت العتاريف ؟ " .

فلم يفهم الخادم شيئاً من هذا السؤال العجيب ، فأراد أن يعامله بالمثل فقال له : " زقفيلم" .

فقال اللغوي : وما "زقفيلم" ؟

قال الخادم : وما معنى صقعت العتاريف ؟

قال قلت لك : أصاحت الديوك ؟

قال الخادم : وأنا قلت لك لم يصح منها شيء .

هذه الطرفة تكشف عن حقيقة أن خلل (التعالي باللغة) يعتري تكوين بعض الشخصيات المهزوزة في ثقافتها بنفسها ، وهذا الاضطراب النفسي كان قديماً الوجود في البيئة الثقافية والفكرية كما توحى الطرفة الآتية .

تحدث عن أوضح نقطة بأعقد لفظة !

وهذا هو الضلع الثاني في (مثلث التمرد الفكري):كن غامضاً وتحدث عن أوضح النقاط بأعقد الألفاظ ، كما هو حال الكثير من المتسلقين الجدد على أسوار الفكر ، الذين يرون أنه لا يمكن تحقيق أي مكانة في عالم الثقافة بلا استعمال لغة معقدة كما استعملها بعض الفلاسفة

وقد كشف " نيغيل واربورتون " في كتابه " الفلسفة - الأسس " هذه الحقيقة بعد أن أكد أن الفلاسفة يستعملون في كتاباتهم الكثير من المصطلحات " غير الضرورية " وبلا أي هدف علمي ، ويقول في ذلك (ص ٢١) : (يميل الفلاسفة المحترفون إلى استعمال المصطلحات المتخصصة من دون أي هدف ، فيستعمل عدد منهم العبارات اللاتينية ، حتى لو كان هناك ما يكافئها من العبارات الانكليزية القادرة على إيصال المعنى) .

وهذا تماماً ما تقوم به " البراعم المتمردة " ، يستعملون " العبارات اللاتينية " ليضيفوا هالة من الغرابة والغموض المعقد على كتاباتهم وأحاديثهم .

وإليك نصيحة تضيء عليك سمات المفكر المتمرد في سويغات :

لا تقل : تربوي ، قل : بيداغوجي .

ولا تقل : غيبي ، قل : ميتافيزيقا .

- ولا تقل : المتعاليات ، قل : الترانستدالي .
 ولا تقل : تفكير مغلق ، ولكن قل : دوجماتيقي (دوغمائي) .
 ولا تقل : الفهم ، قل : الهرمينوطيقا .
 ولا تقل : الجمال ، قل : الاستطيقا .
 ولا تقل : اجتماعي ، قل : سيسولوجي .
 تكلم بلغة " المشعوذين " !

أما " إيمانويل كانت " فسيكتب : بأن وجوده اللا خالد قد جذب نهايته !
 أما " هيغل " فسيكتب هذه الكلمات : صممت الأبدية المطلقة على أن تحد من استمرار مستقبله ؛ فسلبته وجوده ! .

وبهذا يخيل للقارئ أن المعنى الذي يريده " هيغل " أو " كانت " في غاية العمق والتعقيد ، بينما واقع الحال أن الموضوع برمته يمكن إيجازه في عبارة : الرجل " شُنق " !
 ولهذا كان " شوبنهاور " يقول عن " هيغل " بسبب ذلك الأسلوب المعقد الغامض : إنه (دجال مشعوذ) إشارة إلى أن المشعوذين عادة يستعملون عبارات " عالم السحر " غير المفهومة ، وكذا الفيلسوف " كارل بوبر " شن هجوماً لاذعاً على " هيغل " وأضرابه من أصحاب التعقيد والغموض .

سنتان ولم يفهم الأستاذ شيئاً !

ومصادق هذا التعقيد في العبارات الفلسفية عند هيغل على سبيل المثال ما وقع بالفعل لأستاذ الفلسفة في الجامعات العربية الدكتور إمام عبدالفتاح إمام المتخصص في فلسفة " هيغل " وأهم مفكر عربي ترجمها وقدمها للقراء العرب فقد قال في كتابه : " تجربتي مع هيغل " (ص ٢٤) وهو يتحدث عن رسالته في الماجستير : (وشرعتُ في قراءة نصوص " هيغل " لمدة عامين دون أن أفهم شيئاً ، ولجأت إلى التفسيرات والشروح ، ولكنني لم أتقدم خطوة واحدة) ثم وضع سبب الصعوبة تلك فقال : (ولم أتبين وقتها أن " هيغل " كأبي فيلسوف عظيم له مصطلحاته الخاصة ، وأنه قد نحت لنفسه مصطلحات جديدة من ناحية ، وحوّر في معاني المصطلحات القديمة لتناسب أغراضه الفلسفية من ناحية أخرى) ، ويأتي د. إمام في (ص ٤٩) ليستعرض مثلاً على الأسلوب الغامض في

استعمال المصطلح الهيجلي الواحد فيقول : (تسعة مصطلحات يمكن أن نذكرها تحت فكرة الوجود ، وهي تترجم على النحو التالي : الوجود - الوجود الآخر - الوجود في ذاته - الوجود للذات - الوجود المتعين - الوجود المتعين بما هو كذلك - الوجود المتعين بصفة عامة - الوجود الفعلي - الوجود بالفعل ..)

قد نتفهم أسباب غموض التعبير عند فيلسوف كـ " هيجل " لكن كيف سنتفهم الأمر عند " البراعم " الذي لم يكمل الكثير منهم قراءة فصل من كتاب لهيجل ، أليس الأقرب للاحتمال أن استعمال الأسلوب الغامض بما فيه من مصطلحات غير متداولة يمنحهم شعوراً بالتعاليم وإدهاش غيرهم ، ثم أليس التوجه لهذا الأسلوب يساعد على إمدادهم برغبة الظهور على أنهم من المختلفين عن أقرانهم فكراً وثقافة .

ولو شئنا أن نستعير لغتهم المتعالية بكلمات ساخرة لنصف حالهم ، لقلنا : إنهم شريحة " برجوازية من طبقة الانتجلنسيا = (المثقفين) يتسمون بالذوات المتضخمة " تجاه الهموم الشعبية " البروليتارية " = الطبقة الكادحة .

هل أنت من القطيع !؟

والعجيب أنهم يرفعون عقيرتهم مطالبين بالديمقراطية والمشاركة الشعبية والمساواة بين البشر ، وضرورة احترام الإنسان مهما كان أصله أو فكره ، ومع ذلك يصفون تفكير مخالفين بأنه من مخرجات (عقلية القطيع) ، فهل الناس في نظرهم قطعان ماشية !؟ أين كرامة الإنسان عندهم ؟

٣/ كن نسبياً: نص المقولة (نسبية الحقيقة) أو (الحقيقة نسبية) ، وهي بهذه الصيغة أو تلك تؤدي إلى أن (كل) الحقائق بلا استثناء نسبية وليست مطلقة، وهذا يعني أن كل الحقائق بدون استثناء هي عرضة إلى أن تختلف من شخص لآخر أو من جماعة إلى أخرى، أو تتغير باختلاف الأزمنة والأمكنة، ولا توجد حقائق يمكن أن يتفق عليها البشر .

.. ولهذا يؤكد "المعجم الفلسفي" الصادر من مجمع اللغة العربية والذي أشرف عليه نخبة من أساتذة الفلسفة على أن مذهب النسبية: (مذهب يرى أن المعارف والقيم الإنسانية ليست مطلقة، بل تختلف باختلاف الظروف والإعتبارات) ثم ينتقل "المعجم" إلى تعريف

النسبية الأخلاقية بأنها: (القول بأن فكرة الخير والشر تختلف باختلاف الأزمان والجماعات) .

الحقيقة تُستعمل مقابل الباطل ، ويُعرّفها الأكثرون بأنها : كل معرفة مطابقة للواقع .
.. وتتميز الحقيقة عن غيرها وتُعرف بأحد معيارين :

.. (١) الصدق .

.. (٢) الصواب = الصحة .

.. فلا يمكن أن تكون أي معرفة حقيقية إلا إذا تحققت فيها الصدق والصحة، وعليه فهي تتنافى بالضرورة مع الكذب أو الخطأ ، وهنا يجب التشديد على أهمية معرفة أن الحقيقة هي الصدق والصواب، فالذي يبحث عن الحقيقة هو باحث عن المعرفة الصحيحة الصادقة المطابقة للواقع .

.. فالقائل بأن كل الحقائق نسبية، يلزمه أن يقول: لا يمكن أن تكون قيمة الصدق محل اتفاق البشر، ولا يمكن معرفة أي صواب مهما قل يمكن أن يتفق عليه بنو آدم، وعليه فليس هناك أي معارف صحيحة بلا خلاف، أو لا توجد قوانين علمية فيزيائية وهندسية ورياضية صحيحة سالمة من الخطأ .

قلقاً وتشتتاً فكرياً؛ لأنهم يتبنون مقولة مطلقة (البحث عن الحقيقة في الوجود)، وفي الوقت ذاته يعتقدون في ممارساتهم النقاشية مقولة (نسبية الحقيقة)، ووجه التناقض أن ما تبحث عنه (حقائق مطلقة تتسم بالصدق والصحة) ووسيلتك في ذلك لا تنسجم أو تتسق مع الغاية نفسها، وهنا مكن تهافت منهجهم الفكري وتناقضه مما انتهى بهم إلى قلق دائم وفوضى فكرية وتسليم بفشل القدرات الإنسانية في الوصول إلى الطمأنينة القلبية وخلاصة هذا التحليل الموجز أن مقولة (نسبية الحقيقة) تتسم بعيبيين منهجين يهزان الثقة بها :

.. الأول: أنها غامضة بسبب إجمالها وابتعادها عن التفصيل ، فهي لا تميز بين حقيقة تستند إلى دليل ثابت يمكن أن يكون مطلقاً ، وحقيقة تستند إلى دليل ظني يخضع لنسبية البشر ، وإذا تعاملنا مع المقولة نفسها على أنها "حقيقة" فسنجدها تفتقر لمعيار مهم من معايير الحقيقة وهو الوضوح ، مما يخفض مستوى الثقة بها ؛ لأن الحقيقة الصادقة الصحيحة يجب أن تتسم بالوضوح وصحة التطبيق وسلامته ، وهذا ما لم يتحقق في حقيقة (نسبية الحقيقة).

.. الثاني: أنها وقعت في فخ التعميم الجائر ، فلم تخصص نفسها مثلاً فتقول : (أكثر الحقائق نسبية) ، وتترك المجال مفتوحاً لمساحة معقولة من احتمالية وجود حقائق مطلقة كالحقائق الرياضية الأولية المتفق عليها على سبيل المثال . فالحقائق الرياضية الأولية مثلاً مطلقة لا تختلف زماناً ولا مكاناً ، فالعدد ثلاثة أكثر من الواحد ، والجزء أصغر من الكل ، فهذه الحقائق لا تقبل النسبية باختلاف الأشخاص أو الجماعات أو العصور والثقافات .

.. والذي أنتهي إليه أن المقولة في حد ذاتها غير دقيقة أي لا تتصف بالصدق المطابق للواقع ، وتعاني من خطأ في تركيبها وصياغتها - أعني التعميم - مما يؤثر على صحة تطبيقها .

ولنستعمل معها أسلوب الدحض الذاتي، وهو أن كل مقولة يجب ألا تنقض نفسها بنفسها، والله تعالى يقول: "يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون .. كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون" [الصف: ٢-٣]

مقولة (نسبية الحقيقة) أو (الحقيقة نسبية) أن كل الحقائق نسبية بلا استثناء ، ومن تلك الحقائق التي تدخل تحت معنى المقولة ، المقولة نفسها ، فهي في واقع الأمر تخبرنا عن حقيقة وبهذا الاعتبار تدخل المقولة ضمن الحقيقة التي نتحدث عنها .

إما إن تكون مقولة نسبية الحقيقة ؛ نسبية أيضاً ، وعليه فهي إذن غير صادقة و غير قابلة للتعميم لكونها نسبية تختلف باختلاف الأزمنة والأحوال والأشخاص ، و من لوازم هذا إمكانية وجود حقائق مطلقة

ويقول أستاذ الفلسفة في أكسفورد "تيغيل واربورتون" في كتابه (الفلسفة الأسس) (ص ١٠٤) في مبحث نقد النسبية الأخلاقية : ((هل يعاني القائلون بالنسبية من عدم الاتساق ؟ يُتهم أصحاب نظرية النسبية الأخلاقية أحياناً بعدم الاتساق ؛ لأنهم يقولون : إن كل الأحكام الأخلاقية نسبية ، ولكنهم في الوقت ذاته يريدون منا أن نعتقد أن نظرية النسبية الأخلاقية نظرية صائبة بصورة مطلقة ، وهي إشكالية مهمة تواجه مؤيد النظرية، الذي هو نسبي كذلك فيما يتعلق بالحقيقة .. وهذه النظرية هي حكم أخلاقي مطلق، لا يتوافق تماماً مع المقدمة المنطقية للنسبية المعيارية ، وهذا النقد يُدينها)) .

.. ولا دليل أقوى على ضعف نظرية أن يكون مضمونها يعود بالنقض على نفسها، كما رأينا في مقولة: (نسبية الحقيقة) التي يلهج بها كثير من الشكاكين المعاصرين ، فماذا بعد الحق إلا الضلال !؟

: يرى "سيوران" أن أي يقين هو دجل وكذب، وكل الصدق والنزاهة في أن تكون محتاراً متردداً، يقول في ذلك : (تردُّنا علامة على نزاهتنا ، أما يقيننا فلا يدل إلا على دجلنا !)
- ويقول في سياق المعنى السابق : (الآراء نعم ، أما القناعات فلا ، وتلك ركيزة كل عزة فكرية) .

- و يُحقر الاقتناع والترجيح ويُثني على التذبذب واللا أدرية ، فيقول : (وحده يملك قناعات ، من لم يتعمق في شيء !) إذن أنت عميق في حالة واحدة أن تكون لا أدرياً شاكاً غير واثق من شيء .

ما المطلوب يا "سيوران" إذن ؟ يجيب صاحب كتاب "موجز العفن" : كُنَ نسبيّاً ولا تؤمن بشيء ولا تدافع عن شيء وكن أنت لا شيء ، أليست أفضل صيغة للوجود عنده هي ألا نكون موجودين ؟! هذا هو رأيه بلا تحريف .

- ويُحذر أن يكون لك أي موقف فكري أو تتبع أي مذهب أو منهج ، فيقول : (المذهب أخطر أنواع الاستبداد في الفلسفة وفي كل شيء) وهذا تقديس صريح للفوضى الفكرية ، وعداء جلي للعقلانية المنظمة الواعية .

ويذم الفهم ويُطري الحيرة واللا استقرار ، فيقول : (نبدو على هيئة مجرمين في اللحظة التي نعتقد فيها أننا فهمنا كل شيء)
هذا معنى أن تكون "تسبياً" أي تظاهر بأنك لا تفهم شيئاً ، ولا أحد يفهم أي شيء ،
فالعالم بجملته لا معنى له ، ولهذا فالنتيجة : تقديس "البلاهة" وتمجيد الجهل واللا
معنى ، وكل موافقك زبقيّة بامتياز ، تقبل الساعة ما ترفضه بعد ربع ساعة ، ولا حرج
عليك .

تخيل معي صديقي القارئ نتائج مثالية "راسل" الحاملة ولا أدريته المستمرة البائسة ، لو أن بريطانيا أخذت بمشورته وفككت جيشها وأساطيلها وقواتها الجوية ماذا كان سيحدث لها في الحرب العالمية الثانية أمام جيوش " هتلر " الجرارة ؟

ووازن ذلك بوثوقية رئيس وزراء بريطانيا وقتها " ونستون تشرشل " الذي كان لا يثق بالنازيين الألمان ، وخطب في مجلس العموم البريطاني قائلاً - كما ورد في كتاب " ١٠٠ خطاب دمغت القرن العشرين " من تأليف هيرفيه بروكيه وآخرين (١/٣٣٤-٣٣٥) :-
 ليس لدي شيء آخر سوى الدم والألم والدموع والعرق ، أمامنا محنة من أقسى المحن ..
 تسألونني : ما سياستنا ؟ أقول لكم : هي أن نحارب جواً وبراً وبحراً ، بكل قدرتنا ، وبكل القوة التي يعطيها الله لنا ... تسألونني : ما هدفنا ؟ أجيبكم بكلمة واحدة : الانتصار !
 الانتصار مهما كلف الثمن .. سأخذ على عاتقي هذه المهمة بكل حماس وأمل)

وفي خطاب آخر يقول : (لن نحذف أي شيء من مطالبنا المحقة ، لن نتنازل عن شيء ولا عن ذرة .. فلنحضر أنفسنا إذن لنقوم بواجبنا) .

أليست الحياة الواقعية مختبراً حقيقياً لإثبات فشل مبدأ " راسل " !؟

أليست " وثوقية " تشرشل ووضوح رؤيته أقوى دليل على أن اليقين مهم لأي إنجاز بشري مؤثر ؟

ومن خلال التجربة ظهر لي أن الشك المتأصل في المقدسات الدينية لا يستولي في حالات ليست بالقليلة إلا على عقول لديها عجز عاطفي، أو لديها نظرة سوداوية تجاه الحياة والمستقبل، وقد يكون ذلك بسبب التعرض لاضطهاد أسري أو اجتماعي، أو بسبب التهميش فكرياً لكون محيطه لا يمنحه التقدير الذي يستحقه، فتتكاثر سحب الكآبة لتصيب النشاطات الانفعالية الإيجابية بشلل جزئي أو كامل ، وتصبح الانفعالات السلبية في حالة نشاط دائم ويقظ وتمارس فاعليتها باندفاع وهنا مكن الخلل الذي قد لا يُفطن له ؛ لأن العقل في هذه الحالة لا يرى إلا ما يظنه سلبياً ولا يركز إلا على ذلك فقط ، وبهذا يكون عقلاً متطرفاً منحازاً مبتعداً عن العدل والموضوعية والواقعية.

في بواكير شبابي كان لي رفيق سوء أوهمني حين عرّفني بنفسه بأنه (العقل)، ولكن الأيام كشفت لي أنه مُزوّر مُحْتال، كان يظهر لي مُتكرراً في صورة (الذكاء)، وحيناً كان يتستر تحت شعار بَرّاق أخذ يقال له: (التفكير الحر).

٤/ التقليد والمحاكاة : مستهلكوا الأفكار المستوردة !

..إن "مستهلكي الأفكار المستوردة" من الباحثين عن شهرة سريعة أو من المستلذين بخداع أنفسهم بأنهم مبدعون مختلفون عن الآخرين ، لا يستطيع أحدهم أن يأتي بفكرة إلا أن تكون من الأفكار المغتصبة المسروقة بوقاحة من سيوران أونيتشه أو عبدالله القصيمي وأشباههم ، فأين الإبداع والعقل المتوهج بالموهبة المختلفة .

.. إن أي " درباوي " أو " عربي " يمتلك النظرة ذاتها ، فهو يرى أنه يعيش مهمشاً لغرابته واختلافه وفي واقع الأمر يحمل " فلسفة وجودية " لكنها من نوع آخر والفارق بين الفئتين فارق طبقي اقتصادي ليس إلا ، وهنا أدعو أن تعقدوا مقارنة بين " مستهلكي

الأفكار المستوردة و" الدراوية " وابتحوا عن نقاط التشابه بينهما من حيث الرغبة في إثبات الذات وشد الانتباه عبر التمرد!؟

ه/ الخواء: تخبر كاترين تيت عن أبيها الفيلسوف الملحد برتراند راسل أن أباه كان يشعر دائماً بوجود مكان شاغر في عقله وفي قلبه. مكان كان يشغله الرب عندما كان راسل صغيراً، ثم أصبح خاوياً ولم يجد شيئاً يملؤه!

يقول مصطفى محمود في رحلته من الشك إلى الإيمان: (ولو أني أصغيت إلى صوت الفطرة وتركت البداهة تقودني لأعفيت نفسي من عناء الجدل، ولقادتني الفطرة إلى الله).
 "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا".

(من دعاك إلى الإسلام؟) سألتُ ذلك الأمريكي الذي كان تائهاً حائراً، فقال: (الله)! دعوتُ: (يا الله إن كنتَ موجوداً فأرشدني إلى الحق) .. فيسر الله له الأسباب وقاده الله سبحانه إلى المسجد ، فسمع فيه الأذان لأول مرة في حياته، يقول: اهتز فؤادي ووقفت كل شعرة في جسدي، فشهدت شهادة الحق (أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله).
 أختم فأقول: إذا دعوت أحداً إلى الإسلام فأرشده إلى هذا الدعاء أو إلى معناه: (اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، فإنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم).

((أشعر بالخواء بعد ما مات كل مقدس في قلبي، كاني أقف على خيط رفيع، أتذبذب بين هولاء وهولاء، ولا أستقر)).

تعرف نفسها وماذا تريد ولا تعرف أنها لا تعرف، لقد أبحرت في محيطات الفكر عبر قاربها الصغير بلا خرائط ولا خبرة سابقة ، حملها الفضول المعرفي على أن تخوض مغامرة لتكتشف من ورائها عالماً جديداً ، لكن مغامرتها تحولت إلى مخاطرة ألفت بها في أمواج متلاطمة و متاهات موحشة

٦/ التناقض: ماذا يقول الملحد للناس حين يدعوهم إلى الإلحاد أو حين يحاول أن يحتج لإلحاده؟ ليس لدعاة الإلحاد برغم دعوى العقلانية حجة واحدة هم متفقون عليها ولا سبب واحد يسوغون به إلحادهم وإنما هم في قول مضطرب وفي تناقضات ومغالطات يؤفك عنها من أفك.

أكثر ما يلجأ إليه الملحدون في الاحتجاج لإلحادهم هو أن المؤمنين بوجود الخالق لم يعطوهم على وجوده حجة مقنعة. لكنهم حين يفعلون ذلك يفترضون أن الأمر الطبيعي هو عدم وجود الخالق، وأن الذي يدعي وجوده هو المطالب بإعطاء الدليل على وجوده. لماذا لا يكون العكس؟ لماذا لا يكون الأمر الطبيعي هو الأمر الذي يؤمن به جماهير الناس والذي يجدون له أصلاً في نفوسهم، وأن الذي يشذ عن هذا هو المطالب بالدليل؟ إن المؤمنين بوجود الخالق يعتقدون كما سنرى أنه لا تفسير لوجود الكون إلا بوجود الخالق. فهل يرى الملحد أن مسألة وجود الكون هذه مسألة لا تهمه وأن المطالبين بتفسيرها هم المؤمنون وحدهم؟ الواقع أن هذه مسألة تهم كل إنسان عاقل، فإذا لم ير في وجود الخالق حلاً لها فعليه هو أن يفسرها بشيء آخر يقول للمؤمنين إنه البديل عن وجود الخالق. وقد حاول بعضهم شيئاً من هذا لكنها محاولة بائسة كما.

يذكر الدكتور جعفر شيخ إدريس أنّ أول كتابٍ مُصَرَّحٍ بالإلحادِ ، وداعٍ له ، ظهر في أوروبا في سنة ١٧٧٠ م ، وهذه الفترةُ الحرجةُ هي الفترةُ التي بدأت فيها الشعوبُ الأوربيَّةُ تضحُّ من حكمِ الكنيسةِ ، وتدعو للثورةِ عليه ، وقد تبنَّى الفكرَ الإلحاديَّ في

أوروبا كبارُ الفلاسفةِ والمؤرخينَ ، من أمثالِ : نيتشة ، وفولتير ، وكارل ماركس ، وإنجلز ، وراسل ، وكونت ، وغيرهم من كبارِ الفلاسفةِ وعلماءِ الاجتماعِ والتاريخِ ، ممَّا حدا النَّاسَ إلى الوثوقِ بهم ، والتحوُّلِ إلى آرائهم ، كردَّةِ فعلٍ للمواقفِ المُتسلِّطةِ للكنيسةِ ، وكذلكَ ظهورِ مجموعةٍ من التناقضاتِ بينَ الدينِ النصرانيِّ المُحرَّفِ ، وبينَ بعضِ المُخترعاتِ والمُكتشفاتِ العلميَّةِ

ومع ظهورِ بوادرِ الإلحادِ ، نشأتُ العديدُ من المدارسِ والمذاهبِ الفكريَّةِ والاجتماعيَّةِ ، والتي تصبُّ في مصبِّ الإلحادِ ، وتستلهمُ منه مادَّتها ، وترسِّخُ مبادئه ، ومن أشهرِ تلكَ المذاهبِ والمدارسِ :

-العلمانيَّةُ : وهو مذهبٌ كفريٌّ ، نشأ في ظروفٍ عصيبةٍ في أوروبا ، خلالَ القرنِ الثامن عشر ، وذلكَ بسببِ طغيانِ الكنيسةِ ، وتبرُّمِ الناسِ منها ومن نفوذِ رجالها ، ومُحاربةِ الكنيسةِ للعلومِ الطبيعيَّةِ ، خاصَّةً بعدَ تطوُّرِ ونموِّ الحركاتِ العلميَّةِ والبحوثِ ، وخلاصةُ العلمانيَّةِ أنَّها حركةٌ جديدةٌ تهدفُ إلى إقصاءِ الدينِ عن الحياةِ ، وبناءِ مؤسساتِ المجتمعِ على أصولٍ ماديَّةٍ بحتةٍ ، لا دخلَ للدينِ فيها من قريبٍ أو بعيدٍ .

-الوجوديَّةُ : وهي مذهبٌ معاصرٌ ذو جذورٍ قديمةٍ ، يقومُ على أساسِ إبرازِ قيمةِ الفردِ ، والتأكيدِ على حرِّيتهِ ، وأنَّه هو أساسُ كلِّ شيءٍ ومنطلقه ، وهي مذهبٌ إلحاديٌّ ، أسَّسها قديماً كبيرٌ كجرد ، وفي العصرِ الحاضرِ قامَ أبو الوجوديَّةِ جان بول سارتر بإرساءِ دعائمِ هذا المذهبِ ، وإقامةِ أصوله ، وبناءه على الإلحادِ والكفرِ بكلِّ المُثُلِ والقيمِ ، وأنَّ للإنسانِ أن يفعلَ ما شاء ، دونَ وازعٍ أو رقيبٍ .

-الشيوعيَّةُ : وهي مذهبٌ فلسفيٌّ مُعاصرٌ ، أنشأه اليهوديُّ كارل ماركس ، يدعو إلى

تعظيم المادّة ، وأنها أزليّة ، ويُفسّر كارل ماركس التاريخ تفسيراً مادياً بحتاً ، ولهم شعارات عدّة من ضمنها : لا إله والحياة مادّة ، وقد انتشرت الشيوعيّة بالقوّة والاستعباد ، واجتاحت بثوراتها أغلب أرجاء الأرض ، حتى أدن الله بسقوطها ، وبقاء بعض فلولها مشتتةً هنا وهناك .

-الوضعيّة : وهي مذهبٌ فلسفيّ إحدائيّ ، يُنكر وجود أي معرفة تتجاوز التجربة الحسيّة ، أسسه أوغست كونت ، ودعى حين تأسيسه إلى قيام دينٍ جديدٍ ، يقوم على أساس عبادة الإنسانيّة ، وإحلالها محلّ الأديان

-الداروينيّة : نسبةً إلى شارلز داروين ، أقام مدرسته هذه على أساس أن الأحياء جميعاً لم تُخلق كلٌ واحدةٍ منها خلقاً مُستقلاً ، بل كان لها أصلٌ واحدٌ وهو الخليّة البسيطة ، ثمّ أختُ تتطوّر وترتقي من طورٍ إلى طورٍ آخر ، حتى نشأت البشريّات والإنسان ، وأنّ الطبيعة هي التي كانت تختار الأصلح للبقاء ، وذلك ما عبّر عنه بمصطلح : الانتخاب الطبيعيّ ، أو بقاء الأصلح ، ومدرسة داروين تجمع في ثنيها كبار ملاحدة العالم ، والذين يرون أن الإنسان لا خالق له ، وأنّه وليد ملايين السنوات من التطوّر الطبيعيّ ، والنشوء والارتقاء بين الأنواع المختلفة ، وبالرغم من عدم وجود أي دليلٍ علميٍّ ، يُبثّ صحّة نظريّة داروين ، إلا أنّها اجتاحت العالم الغربيّ اجتياحٍ غريباً ، وأثرت فيه وفي ثقافته ، حتى بدأت تنحسر في الآونة الأخيرة .

وهناك العديد من المدارس غير ما ذكر ، وكذلك النظريّات ، سواء ما كان منها علمياً بحتاً ، أو اجتماعياً ، أثرت أو تأثرت بالإلحاد ، وقامت بترسيخ مفاهيمه ، ودعت إليه .

ومن المؤسف حقاً ، أن الإلحاد حينما صبغ الحياة العامّة في أوروبا ، أصبح أمرٌ

التدين ، والتمسك بدين ، أو الإيمان بالخالق ، شيئاً غريباً ! ، وظاهرةً تدعو إلى العجب ! ، بعد أن كانت هي السائدة على نظام الحياة ، ومؤسسات الحكم ، وإن كان ثم شيء يدعو إلى التعجب والاستغراب ، فهو انتشار الإلحاد في تلك الفترة ، وانحسار الإيمان بالله ، وتعلق الناس بالمادة والطبيعة ، ووصفهم للدين بأنه تخلف ورجعية .

إنكارهم للغيب جملةً وتفصيلاً ، وقصرهم الإيمان بحدود الملموس والمحسوس - فقط - ، دون ما غاب عن العين ، أو لم يمكن إدراكه بالحس ،

-استهزائهم بالشعائر الدينية جميعها ، ووصفهم لأهلها بالرجعيين والمتخلفين ، ومحاربة أي دعوة تدعو إلى التدين ، أو صبغ الحياة بمظاهر الدين .

-ميلهم نحو احتقار العرب ، واحتقار عاداتهم وسلوكهم ، ومدحهم للشعوبية والباطنية

-دعوتهم للتغريب والالتحاق بالغرب ، والأخذ بجميع ثقافتهم وأمورهم الحياتية ، والتعلم منهم ومن سلوكياتهم .

-حربهم الشرسة على الأخلاق والعادات الحميدة ، وادعائهم أنه لا يوجد شيء ثابت مطلقاً ، وأن الحياة والأخلاق والعادات ، في تطور مستمر ، وأن الثبات على الشيء إنما هو من شأن الغوغائيين والمتخلفين والرجعيين .

-تعظيم المادة والطبيعة ، وكذلك تعظيم جميع العلوم الطبيعية ، وجعله أساس كل الحضارات ، وافتعال صراع مزعوم بين الدين والعلم التطبيقي .

-منعهم من محاربة الاحتلال ، ووقوفهم دائماً ضدّ المقاوماتِ الشعبيّةِ ، ووصفها بصفاتٍ بشعةٍ ، والدعوةُ إلى مهادنةِ الغازي والتعايشُ معهُ .

العلاج:-

الأول : حارب الشكّ بسلاحه إن الحوار الذي أتبناه قائم على سياسة وهي أنني شريك في التفكير، ورفيق رحلة البحث عن الحقيقة، ولذا طلبت من الفتاة أن تعرض إشكالاتها بالترتيب واحداً تلو الآخر لأشاركها التفكير فيها، فنبحت سوياً، ونكتشف المعلومات سوياً، ونتساءل معاً، ونفتش بلا كلل : في بعض الأحيان، عندما تتمكن الشكوك من بعض العقول وتتجذر فيها ، فإن الخبرة العملية المستفادة من دروس الواقع وتجاربه تقول: قد يُقطع رأس (الشك) بسيف الشك نفسه، لقد كنت أميل إلى أن (فتاة الشك) ستجد عشرات التشكيكات والإيرادات على كل جواب سأطرحه في وجه شبهاتها القرآنية أو اعتراضاتها الدينية، ولهذا رأيت أن الأنسب لشخصيتها الفكرية تحديداً أن أزلزل مكانة الشك في قلبها، فقد استقر في ظنها أنه هو النقد العلمي والتفكير الحر، بل هو الاستقلالية العقلانية عن الأفكار التقليدية التي نشأت عليها، ولهذا كانت (فتاة الشك) منبهرة به معجبة بالأعبيه منجذبة إلى كبريائه وتمرده الراض والمعارض لكل ما هو سائد ومتعارف عليه، لقد وقعت في حباله وأدمنته، نعم أدمنت (التشكيك في المقدسات)، ولم تعد ترى العلم والفكر والعقل إلا من خلال إدمانها الذي خضعت له بكل خنوع واستسلام فقد كان شعور الرفض والاعتراض يغذي لديها الإحساس بأنها متفوقة ومختلفة بتميزها عن الأكثرية ، فمن كانت حالته أو حالتها مقاربة لهذه السمات، يكون من المناسب أن يُبدأ معه بهذه السياسة ، ولكل حالة تقديراتها الخاصة، فلا يعمم الحل على كل حالة.

.. أعود فأقول : قررتُ بأنني في المرحلة الأولى لن أخوض في الردود الشرعية أو الأجوبة الدينية ، بل سأقوم بفحص نقدي وتمحيص استقصائي لأعماق أسئلتها وإشكالاتها، مستخدماً الشك نفسه في طرح الاحتمالات معترضاً على كل إشكال تطرحه أو سؤال تلقيه، سأفكك بهدوء وأحل بدقة مكونات كل إشكال، سأقف عند كل كلمة وسأندبر كل تركيب لغوي مراعيماً ما قبله وما بعده مطيلاً النظر فيه مع تقليب الوجوه والافتراضات، وسأطرح أسئلة حول مقدمات كل إشكال، واستفسارات عن منطلقاته الأساسية، ومسلماته الخفية غير الظاهرة، وسأناقش نشأة كل إشكال وسبب إيرادها، وأبحث عن شروط كل سؤال تطرحه، وسأجتهد في إيراد ما يعارض أسئلتها ويضادها ويخالفها من الحقائق أو الوقائع، ثم لأبد من التفكير في مآلات كل سؤال من أسئلتها ونتائجها التي تتولد عنه ، ويكون ذلك كله بمثابة التفكير بصوت عالٍ عبر إطلاق (قطعان من وحوش الأسئلة) كي تنهش كل سؤال متغطرس بغرور الشك، وكي تتحقق فائدة أخرى وهي أن (فتاة الشك) تتدرب على مناقشة الأفكار وفحص الأسئلة والاستشكالات ويخف وهج إنبهارها بكل سؤال يمليه الشك في المقدسات.

.. إذا عرفت (فتاة الشك) حقيقة تلك الشبهات وتهافتها، وبدأت تشعر أن هالة الإنبهار بالشك بدأت تتضعض أمام ناظريها، حينها يكون الجواب ممكناً، مع أنني لا أفضل طرح الأجوبة في المرحلة الأولى من الحوار، لأن الإسلام منظومة متكاملة من المفاهيم والقيم، فمن لم يفهم كلياته العقدية وترابطها، فلن يقنع بأجوبة على شبهات تتعلق بأجزاء من الدين مرتبطة بأصول كلية، ولشرح ذلك أقول: من لم يُسلم بحقيقة العبودية لله ومحورية هذه الأصل في الإسلام، فمن البدهي ألا يقنع بغيره، كذلك حكمة الابتلاء، وعقيدة القضاء والقدر، لذا أرى أن المبادرة بالأجوبة على شبهات الشاكين لن تكون مقنعة لهم، والواجب أن يسبق ذلك مرحلة هجوم على الشك بغرض هدمه حتى يتقهقر غروره وتتهاوى زخارفه، وأما الابتداء بالأجوبة الدفاعية عن الدين، فهي طريقة ضعيفة غير مناسبة لعقول أسرها الشك في معتقدات تعذيبه، بل الخطوة الأولى تكون في تحرير العقل المأسور بالشك من قيوده؛ ليصبح قادراً على النظر الحر، وهذا ما يسميه بعض علماء الإسلام بخطوة (الهدم) فالهجوم على حصون الشك أقوى أثراً من الدفاع فقط، ويجب ألا يعطى المخالف ميزة المبادرة بالهجوم على الدين ونكون في مرحلة الدفاع عن النفس، هذا خلل في

سياسة الحوار مع الشكاكين غفل عنه بعض الصالحين في محاوراتهم . وفيما يروى عن أرسطو أنه قال : ((لا يمكن أن تقاوم الفلسفة إلا بالفلسفة))، والشك المذهبي المرّضي تنطبق عليه هذه المقولة فيقاوم الشك بالشك، لاسيما وأن أرسطو ممن دخل في معارك ضارية مع السفسطائيين الذين أفسدوا الحياة الفكرية في عصره بنشر مذهبهم التشكيكي في كل شيء، بل يقال : إنه لم يؤسس علم المنطق إلا لمواجهة الآثار المدمرة لشك السفسطائيين، وكانت غايته منه أن تعصم قوانينه الذهن من الوقوع في الخطأ . حوار إبراهيم....

:

الثاني : دعه يقتنع بنفسه : من الخصائص النفسية لبعض الشخصيات المولعة بالتفكير والنظر أنها تقتنع بالأفكار التي تصل إليها بنفسها بعد بحث وتأمل، وتأنف من القبول بأفكار تقدم إليها بسهولة ويسر، لذلك كنت متوجهاً إلى أي سأكون مساعداً لفتاة الشك، لأجل أن تصل للمعلومات الصحيحة بنفسها، ولن ألقى إليها بأجوبة جاهزة، وقد تكون هذه الطريقة طويلة ومملة، ولكنها أقوى في الإقناع، إلا إذا طلب الشريك في الحوار أن يسمع الجواب بلا بحث وتفتيش، فهنا لا مفر من التبرع بالجواب كاملاً.

.. إن الشاب المتمرد مسكون بفكرة الاستقلال الفكري، ولهذا ينفر من أي محاور يمارس عليه وصاية أو تعالم، وكأنه يقول له بلسان الحال: أنا من سيعلمك لأنك لا تعرف شيئاً، عندما يلمس الشاب هذه النبرة المتعالية سيقوم تلقائياً حواجز نفسية تمنع عقله من قبول الأدلة مهما كانت قوية ، لن يسمح لك أن تدك حصون فكره أو تغزو تقديره لذاته بجذلك وأدلتك، لن يسمح لك بممارسة التقليل من احترامه لنفسه، سينافح ويناضل عن قناعته السابقة بشتى الحيل الجدلية ، لذلك من الخير له أن تترك له فرصة الوصول للمعلومات الصحيحة بنفسه من خلال مساعدته على الاستفادة من كتاب أو مقال أو فيلم وثائقي ونحو ذلك .

.. إن الشاب المتمرد مسكون بفكرة الاستقلال الفكري، ولهذا ينفر من أي محاور يمارس عليه وصاية أو تعالم، وكأنه يقول له بلسان الحال: أنا من سيعلمك لأنك لا تعرف شيئاً، عندما يلمس الشاب هذه النبرة المتعالية سيقوم تلقائياً حواجز نفسية تمنع عقله من قبول

الأدلة مهما كانت قوية ، لن يسمح لك أن تدك حصون فكره أو تغزو تقديره لذاته بجذلك وأدلتك، لن يسمح لك بممارسة التقليل من احترامه لنفسه، سينافح ويناضل عن قناعاته السابقة بشتى الحيل الجدلية ، لذلك من الخير له أن تترك له فرصة الوصول للمعلومات الصحيحة بنفسه من خلال مساعدته على الاستفادة من كتاب أو مقال أو فيلم وثائقي ونحو ذلك .

الثالث : حرّك العقل المشلول : من الأمور المهمة جداً التي كنت أفكر فيها أن أتحقق من القدرة على تذوق جمال الطبيعة والكون، وممارسة الإنفعالات العاطفية الإيجابية لدى شريكي في الحوار، فالعقل الذي ينشط في البحث عن الحقيقة كما يظن، وهو معطل من جهة العواطف الإيجابية أو التذوق الجمالي، هو عقل مشلول في حاجة أن يُمنح فرصة حتى يسترد عافيته ولياقته ، لذا لن تنفعه الردود والأجوبة مهما كانت قوية ؛ لأنه ليس مهيناً للقيام بمهام الفهم والتحليل بموضوعية وعدل بسبب سيطرة مشاعر الاستياء والسخط والتذمر عليه وتحكمها في توجيهه حيث تشاء، وهذه المشاعر السوداوية معطلة لأجزاء من وظائف العقل وتوازنه، وأستعير هنا مقولة للعالمية الطبيبة سعادة الدكتور سيماء بخيت تقول فيها: (الإنسان يبحث عن نفسه وعن خالقه في هذا الوجود من خلال تفاعله مع الآيات الكونية والعلاقات الإنسانية ، فإن كان تفاعله مع الأولى نادراً أو معدوماً ، ومع الثانية ضعيفاً أو سيئاً ؛ فلن يستطيع تقدير عظمة الخالق وجمال المخلوق، فيرتاب في الخالق لأنه ليس بمقدوره رؤية روعة مخلوقاته أو إدراك حكمة تدبيره ، وبالتالي لا يسعه إلا الإلحاد)، ومضمون هذا الكلام أن العجز عن تذوق الجمال أو التفاعل مع الانفعالات الخيرة بحول دون رؤية واضحة للحقيقة فضلاً عن بلوغها . وهذا الأمر في غاية الأهمية لأن الشك المتأصل ينمو في بيئة تشاؤمية سوداوية تقود إلى ضرب من الكآبة والسلبية المفرطة، مما يؤدي أحياناً إلى نوع من الصقيع العاطفي، وجمود الأحاسيس الفاضلة، وتعطل مراكز المشاعر الإيجابية كالتفاؤل والحب والرحمة والتعاطف مع آلام الآخرين، وكل ذلك يؤثر في دقة أحكام العقل، كجهاز استقبال أصيب بخلل يعطله

عن التقاط الذبذبات والموجات، فيظن صاحبه أن المشكلة من مصدر البث، وواقع الحال أن المشكلة في جهاز التلقي نفسه .

لا يتقنون فن المناقشة والجدل .

- لا يحسنون وزن الحجج والأدلة وطرق صناعتها وبنائها .

- لا يعرفون كيفية اكتشاف المغالطات المنطقية في الاستدلال .

- لا يتقنون قواعد منهجية البحث العلمي الموضوعي .

تأمل في القصة التي أنقلها عن الكاتب إبراهيم السكران في مقاله (المجرات سلاالم اليقين):
وسوف أختتم هذا الباب بواقعة رواها العالم الهندي المغفور له الدكتور عناية الله المشريقي وهو يقول:

كان ذلك يوم أحدٍ، من أيام سنة ١٩٠٩م، وكانت السماء تمطر بغزارة، وخرجت من بيتي لقضاء حاجة ما، فإذا بي أرى الفلكي المشهور السير جيمس جينز-الأستاذ بجامعة كمبردج- ذاهباً إلي الكنيسة، والإنجيل والشمسية تحت إبطه، فدنوتُ منه، وسلمت عليه، فلم يرد علي، فسلمت عليه مرة أخرى، فسألني: ماذا تريد مني؟

فقلت له: أمرين، يا سيدي! الأول هو: أن شمسيتهك تحت إبطك رغم شدة المطر.!

فابتسم السير جيمس وفتح شمسيته على الفور .

فقلت له: وأما الأمر الآخر فهو: ما الذي يدفع رجلاً ذائع الصيت في العالم مثلك؛ أن يتوجه إلي الكنيسة؟

وأمام هذا السؤال توقف السير جيمس لحظةً، ثم قال: عليك اليوم أن تأخذ شاي المساء عندي .

وعندما وصلت إلي داره في المساء؛ خرجت ليدي جيمس، في تمام الساعة الرابعة بالضبط، وأخبرتني أن السير جيمس ينتظرني، وعندما دخلت عليه في غرفته، وجدت

أمامه منضدة صغيرة موضوعة عليها أدوات الشاي، وكان البروفيسور منهمكاً في أفكاره، وعندما شعر بوجودي سألني: ماذا كان سؤالك؟.

ودون أن ينتظر ردي بدأ يلقي محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية، ونظامها المدهش، وأبعادها وفواصلها اللامتناهية، وطرقها، ومداراتها، وجاذبيتها، وطوفان أنوارها المذهلة، حتى إنني شعرت بقلبي يهتز بهيبة الله وجلاله.

وأما السير جيمس فوجدت شعر رأسه قائماً، والدموع تنهمر من عينيه، ويداه ترتعدان من خشية الله، وتوقف فجأة ثم بدأ يقول: يا عناية الله! عندما ألقى نظرة علي روائع خلق الله، يبدأ وجودي يرتعش من الجلال الإلهي، وعندما أركع أمام الله وأقول له: "إنك لعظيم!" أجد أن كل جزء من كياني يؤيدني في هذا الدعاء، وأشعر بسكون وسعادة عظيمين، وأحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين ألف مرة، أفهمت يا عناية الله خان، لماذا أذهب إلي الكنيسة؟

ويضيف العلامة عناية الله قائلاً: لقد أحدثت هذه المحاضرة طوفاناً في عقلي، وقلت له: يا سيدي لقد تأثرت جداً بالتفاصيل العلمية التي رويتها لي، وتذكرت بهذه المناسبة آية من آي كتابي المقدس، فلو سمحتم لي لقرأتها عليكم.

: فهز رأسه قائلاً: بكل سرور.

فقرأت عليه الآية التالية: (وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ.)

فصرخ السير جيمس قائلاً: ماذا قلت؟ "إنما يخشى الله من عباده العلماء"؟ مدهش! وغريب وعجيب جداً!!، إن الأمر الذي كشفت عنه بعد دراسة ومشاهدة استمرت خمسين سنة، من أنبا محمداً به؟ هل هذه الآية موجودة في القرآن حقيقة؟ لو كان الأمر كذلك؛ فاكتب شهادة مني أن القرآن كتاب موحى من عند الله.

ويستطرد السير جيمس جينز قائلاً: لقد كان محمد أمياً، ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه، ولكن "الله" هو الذي أخبره بهذا السر.. مدهش!.. وغريب وعجيب جداً)

[وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى، ترجمة ظفر الإسلام خان، ص ٢٠٣].

قال (سُنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) [فصلت:..]

ومن أعظم النماذج في التعامل مع الفلك كمعراج لليقين، والتي تفوق ما ذكرناه عن غير الرسل، موقف خليل الله إبراهيم -صلى الله عليه وآله وسلم- وما جرى له من أحوال مع الأجرام الفلكية.. وقد نص الله في كتابه أنه أرى إبراهيم "ملكوت السموات والأرض" لتحقيق نتيجة واضحة وهي قوله "وليكون من الموقنين..".

وقد دعانا الله إلى هذا النظر في ملكوت السموات والأرض فقال سبحانه (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) [الأعراف: ١٨٥]

فأي برهان أعظم من هذا البرهان يبين أن الفلك معراج لليقين .. وأن الأجرام السماوية وأحوالها سلاسل يصعد بها القلب إلى مدارات الجزم وخلع الارتياحات.. (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) [الأنعام: ٧٥].

.. فالشأن بذلك يخوض حرباً غير متكافئة، متوهماً أن الحقيقية يجب اتباعها مهما كان مصدرها، وأنه بتخليه عن معتقداته يكون بذلك ساعياً وراء الحق الذي ظهر له، ويتبين لك عند الاستفسار أن معلوماته الدينية في كثير من الأحيان هي أشبه بمعلومات سياحية سطحية هشة للغاية

لماذا إذن شاع بين الشباب المثقف العربي، المعجب بالغرب؛ القراءة في "التراث" الفلسفي الغربي، كفلسفة القرون ١٧-١٨-١٩، والضعف في التكوين العلمي الطبيعي؟

الحقيقة أن هذه الظاهرة تستحق الرصد والتحليل، وسأحاول أن أقدم تفسيراً لها، ففي تقديري أن هؤلاء الشباب العربي قرؤوا للمفكرين العرب الذين درسوا الفلسفة في الغرب، ولم يقرؤوا لمختصي العلوم الطبيعية من العرب، فنقلهم المفكرون العرب أصحاب التكوين الفلسفي إلى التراث الفلسفي الغربي، وصوروا لهم أن التقدم المادي الغربي كله نتيجة للفلسفة الغربية، وهذا التصوير نتيجة طبيعية لكون هؤلاء المفكرين العرب يسوقون بضاعتهم، ولذلك وجدنا شباباً عربياً يتخرج من كليات الطب والهندسة والعلوم ثم يصرف وقت فراغه في قراءة التراث الفلسفي الغربي (القرون 17-18-19)، بدلاً من أن ينشر الثقافة العلمية الحديثة والمعاصرة في بلده! وهذه ظاهرة مدهشة فعلاً، ومحزنة في نفس الوقت، فالمؤهلون بالعلوم التي يحتاجها مجتمعنا من الجادين في القراءة يترك بعضهم ترقية مجتمعنا بتخصصه، ويذهب يحفر في غبار التاريخ الغربي العتيق!

عالم النفس الشهير البروفيسور بول فيتز (Paul C. Vitz) نشر ورقة في مجلة (Truth Journal) بعنوان: علم نفس الإلحاد: (Psychology of Atheism The). يقول: أنا مقتنع تماماً أن أغلب الملحدين ليس عندهم أسباب عقلانية للإلحاد (rational)، وإنما هي دوافع نفسية (factors psychological). ثم يخبر عن قصة إلحاده فيقول: إنه نشأ نشأة مسيحية ضعيفة، ثم أصبح ملحداً عندما كان طالباً في الكلية في الخمسينيات ١٩٥٠م، ثم إنه استمر ملحداً في بدء حياته العملية في هيئة التدريس بجامعة نيويورك - قسم علم النفس التجريبي. إلا أن الغريب فعلاً، هو رجوعه إلى دين المسيحية في غمرة حياته العلمية آخر الثلاثينيات من عمره.

يقول: وطوال سنوات إحداه العشرين (١٨ - ٣٨ سنة) لم يكن عنده أسباب مقنعة للإلحاد، كانت دوافعه سطحية وغير عقلانية، وإلى حد كبير من عدم النزاهة الفكرية أو الأخلاقية.

يصور البعض أن أغلب علماء الطبيعة والأحياء ملحدون، وهذا غير صحيح، بل الإلحاد في أوساط علماء الاجتماع والنفس أكثر شيوعاً. ففي إحصائية للعلماء الأمريكيين ذكرها د. جعفر إدريس في كتابه: "الفيزياء ووجود الخالق": ٥٥% من علماء الفيزياء والأحياء متدينون، و ٦٠% من علماء الرياضيات، و ٤٥% من علماء الاجتماع، و ٣٣% من علماء النفس!

وذكر فولتير الذي تملص من ربه وأبيه ومملكه وطبقته، وتمنى الانتماء إلى طبقة أعلى وكتب عن هذا في روايته (كانديد)، وقد كتب فولتير في شبابه مسرحية عن (أوديب) الذي قتل أباه في النهاية.

وقد تملص فولتير من بنوته لأبيه كما فعل فرويد مراراً، حتى إنه غير اسمه في آخر الأمر.

وهذا كارل ماركس، الذي تحوّل والده عن اليهودية إلى النصرانية سعياً للاندماج في المجتمع. بالرغم من كون ماركس من سلالة من الأبحار من أبيه وأمه. وقد أثر تحوّل الأب عن اليهودية في ابنه كثيراً.

ومن المشاهير الذين فقدوا آباءهم في الطفولة سارتر وراسل ونيتشه، فأصابهم ذلك بالإحباط والسخط على الحياة، وأصبحوا من كبار منظري الإلحاد. وكذلك الملحد الشهير أنتوني فلو كان يتعرض له من ضغط من والده و خلافات معه. لكن الفيلسوف (فلو) عندما وصل عمره ثمانين سنة: أقر بوجود الخالق،

حل: توجيه الإبداع لقضايا معنوية

التجسد العاطفي، التقمص الشعوري

"يقينك" ليس قميصاً تخلعه ثم ترتديه متى شئت، ألا تعلم أنك قد لا تجده للأبد ، هل تضمن أنك لن تلو الغشاوة على عينيك ؟ هل أنت مطمئن إلى أن قلبك لن يُختم عليه ؟

:

* إنه إيمانك و"إذا ضاع الإيمان فلا أمان"، أيها الشاب إيمانك بربك وقرآنك ونبيك هو كل ما تملك من قوة روحية تحافظ على تماسكك في هذه الحياة وتحمل آلامها ومصائبها ، فلا تخاطر بكل شيء في مغامرة طائشة !

:

* "إيمانك" ليس لعبة الكترونية للتسلية والتنفيس ، فلا مرحباً بالفضول المعرفي ، ولا أهلاً بالثقة المفرطة بالنفس إن كانت النهاية هي كل هذا الفراغ الروحي والضياع الفكري والنفسي ، بنست النتيجة نتيجة ترميك في أحضان اليأس والقنوط والشعور القاتل بالهباء والخواء ، وفقدان أي معنى لوجودك وحياتك .

* أيها الشاب : إذا كنت تتبعت بشغف مغالطات الملحددين حتى تشبع بها فرك وفاضت بقيحها نفسك ، فلا تلوم الدين وأهله ، بل أقبل على نفسك وقرعها، (يداكا أوكتا وفوك نفخ) .

.. ومن عاند وتكبر في نفسه ورآها فوق مستوى النصح والتوجيه ؛ فليتحمل قراراته ، وليقبل بمصيره المحتوم ! ففي قضية الإيمان لا مجال للمجاملات التافهة، لا مجال لخداع النفس، فإن الأمر كما قال خالقنا سبحانه : (بل الإنسان على نفسه بصيرة .. ولو ألقى معاذيره) ..

.. ما أشد هذه الآية على النفس الباحثة عن الحق بصدق : ((ولو ألقى معاذيره)) ما أذارك ؟ وبماذا ستعذر ؟ لا نجاة إلا بالصدق وأنت تعرفه جيداً فأنت بصير بنفسك !!